من المبدأ الى الغاية في تربية الذات
من خلال فكر محمد إقبال.

From the principle to the end in the education of the self-according to Mohamed Iqbal

كعبوش أحمد.

- المركز الجامعي نور بشير؛ البيض؛ (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: *Kaboucheahmed141@gmail.com*

تاريخ الإرسال: 2023/03/30؛ تاريخ القبول:2023/05/10؛ تاريخ النشر:2023/06/09.

الملخص:

تجديد الخطاب الإصلاحي للنهضة من خلال تربية الذات تعد منطلقا لبناء مجتمع مسلم متصالح مع نفسه، يحفظ هويته وصلته بربه، ونجد محمد اقبال واحد من أولئك المفكرين الذين انتهجوا هذا السبيل، ويتبين ذلك من خلال كتابه: "تجديد التفكير الديني في الإسلام" والظروف التي عاشها في الهند، والتي ساهمت في بلورت فكره، خاصة وأنه عاش في تلك المنطقة من عالم الشرق الأقصى، والتي تختلف وتتنوع فيها الديانات السماوية والوثنية، والأعراق والأعراف باختلافها، ومعايشة المسلمون للاحتلال من جهة أخرى.

يسعى محمد إقبال إلى توضيح معنى الذات الطموحة والتي لا حدود لها سوى حدود الإيمان، وليس العلم التجريبي بكاف لتحديد وتجديد الذات، إنّما الذات الحقيقية هي تلك الذات الشجاعة، التي

تخوض غمار معارك الحياة المتجددة، وهاته الذات ليست منفردة إنما داخل ذوات أخرى لها غايات مشتركة، فتكون الجماعة من الأفراد محرك حيوي لهاته الذات، ولكن حتى هاته الذات الصغيرة داخل المجموعة لها استقلال ذاتي، لا يخرج عن نطاق الجماعة، بشرط أن تكون الجماعة حيّة ذات روح.

الكلمات المفتاحية: تربية الذات؛ محمد إقبال؛ من المبدأ إلى الغاية؛ تربية الفكر؛ نفي الذات.

Abstract:

Renewing the reformist discourse of the renaissance of the Muslim individual through self -raising is a starting point for building a Muslim society reconciled with himself, preserving his identity and his connection with his Lord/HOLLY GOD, we find Mohamed Iqbal one of those thinkers, and this is evident through the readings of his book: "Renewing religious thinking in Islam" and the circumstances he lived in India, which contributed to the gathering of its thought, especially since he lived in that region from the world of the Far East, in which the divine and pagan religions vary, ethnicities and norms of different, and the coexistence of Muslims for the occupation on the other hand

Mohamed Iqbal seeks to clarify the meaning of the ambitious self, which has no limits but the limits of faith, and empirical science is not sufficient to define and renew the self, but the real self is that courageous self, which fights in the midst of the battles of renewed life, and this self is not alone but within other selves that have common goals So the group of individuals is a vital engine for this self, but even this small self within the group has autonomy, which does not depart from the scope of the group, provided that this group is alive with a soul.

Keywords: self-education; Mohamed Iqbal; principle to end; education of thought; Self-denial.

مقدمة:

يعتبر الدّين المحور الأساسي في بناء مقومات الهوية، والذي بحث من خلاله محمد إقبال عن جوهر الإصلاح الاجتماعي نظرا لعدة أسباب، ليس لأنه من أهم مقومات بناء الأمة، ولكن فيه دستور الأمة، والحقيقة الكامنة التي تحتاج إلى علماء أفذاذ لإعادة صياغة فهم الدّين، لأنه يحقق شروط مشروع إقامة وحدة شاملة للمسلمين، واعتبار الدّين يدعوا المسلمين إلى استقلال إرادة الشعوب، فاجتماع الأمة مبني على الإيمان، وتحصن الوحدة بالتوحيد الصحيح، الذي يقود إلى العمل، وبهذا تتجاوز وحدة الأمة الرقعة الجغرافية إلى وحدة روحية، وقد عايش محمد اقبال مفارقة الدّين في الهند، واختلاف أهل الرقعة الواحدة، ولذلك المجتمع العربي الإسلامي أمة ليس لها حدود جغرافية وزمانية، فهي تتجاوز مفهوم الوطن، ولكن الذي يوحدها هو القرآن والسنة وإجماع الأمّة، على هدي السلف الصالح.

وتأويل الكون تأويلا روحيا، وتحرير روح الفرد، ووضع مبادئ أساسية ذات أهمية عالمية توجه تطور المجتمع الإنساني على أساس روحي، إن هاته الأمور الثلاثة، التي عقد عليها محمد إقبال العزم، هي عين الإصلاح، وتوضيح هاته الأهمية المطلقة بداية من ذات الفرد، وذلك بعد إتمام أهمية الدّين في العملية الإصلاحية، لاعتبار الدّين الإسلامي جامع روحي للأمة العربية الإسلامية، وموحدها، ومحركها نحو بناء حضارة خاصة بالمسلمين تجمعهم الروابط الروحية أكثر مما تجمعهم الرقعة الجغرافية.

وكل من الظروف والملابسات التي أحاطت بمحمد اقبال، قد أحدثت في ذاته هاجسا مع مرور الزمن، عن سؤال لماذا تقدّم غيرنا

وتأخرنا، رغم كل المقومات التي تمتلكها الأمة الهندية، والأمة العربية الإسلامية؟

1- المنبع العقدي في العملية الاصلاحية:

يعتبر الدّين المحور الأساسي في بناء مقومات الهوية، والذي بحث من خلاله محمد إقبال عن جوهر الإصلاح الاجتماعي، نظرا لعدة أسباب، ليس لأنه من أهم مقومات بناء الأمة، ولكن فيه دستور الأمة، والحقيقة الكامنة التي تحتاج إلى علماء أفذاذ لإعادة صياغة فهم الدّين، لأنه يحقق شروط مشروع إقامة وحدة شاملة للمسلمين، ولاعتبار أن الدّين يدعوا المسلمين إلى استقلال إرادة الشعوب، فاجتماع الأمة مبني على الإيمان، وتحصن الوحدة بالتوحيد الصحيح، الذي يقود إلى العمل، وبهذا تتجاوز وحدة الأمة الرقعة الجغرافية إلى وحدة روحية، وقد عايش محمد اقبال مفارقة الدّين في الهند، واختلاف أهل الرقعة الواحدة، ولذلك المجتمع العربي الإسلامي، أمة ليس لها حدود جغرافية وزمانية، فهي تتجاوز مفهوم الوطن، ولكن الذي يوحدها هو القرآن والسنة وإجماع الأمّة، على هدي السلف الصالح، ولذا نجده يقول في رسالة "خودي"(محمد إقبال، 2007، 211):

أرأيت الطير في عرس الربيع وهيـــاج الكم والورد الينيع
وعروس الزهر نشـــوى النغم وعلى الأرض قرى من أنجم
غسل العشب دموع الصــخر وشـــــدا الماء لنوم النهر
وإذا الكـــــم على الغض ربا منحته حجرها ريح الصــبا

وهذا الشعر للدلالة على أهمية المصدر الموحد للأمة، وموقظ الذات، وهو القرآن وأما التفسير والفتاوى، قد تتغير، وتكون صالحة لزمان دون آخر ومكان معين، فهو باب مفتوح للعلماء للبحث والتعمق

في تفسيره، وعن السر في القرآن كموقظ للذات كتب محمد إقبال (محمد إقبال، 2007، 214):

صـــاح هل تعلم ما سكتا؟ أي سرّ ضـمنت قدرتكـــما؟
الكتاب الحيّ والذكـر الحكيم حكمة في الدّهر تبقى لا تريم
إن فيه سرّ تكوين الحياة يستمد النكس أبدا من قواه
لفظه لاريب أو تبديل فيه آيه لا لبـس أو تأويل فيه
قوة فيه تشد الخورا وبها يرمي الزجـاج الحجرا

ولذا كان كتاب: "تجديد التفكر الدّيني في الإسلام" من أهم كتبه، وقد أودع فيه أهم أفكار مشروعه الإصلاحي، خاصة وأنه عاش فترة طويلة اتصل فكره بفكر الحضارة الغربية، وأهم مذاهبها الفلسفية، أمثال، هنري برغسون، وإمانويل كانط ودوركايم، وتأثر من جهة أخرى، بالعلم الحديث المبني على المنهج التجريبي الجديد، فحاول انطلاقا من ذلك، استقراء الدّين من مصادره، وتحليله انطلاقا من واقع العلوم الحديثة.

فإحياء شروط إعادة بناء حضارة الأوائل من العرب والمسلمين، تدعونا إلى إعادة النظر في الدّين، بطريقة تدعونا إلى فهم الحقيقة بطريقة صحيحة، تدل على جوهر الحقيقة، لأنه في مجال العلم نفهم معاني التجربة، وهذا يسمى بالمسلك الخارجي للحقيقة، وفي مجال الدّين فإن الحقيقة غير ذلك، لأنه كما يقول محمد إقبال: "نحاول كشف معناه، فيما يتعلق أساسيا بطبيعة تلك الحقيقة، والخطط الدينية، والعلمية متشابهة بوجه ما، فهما يتناولان في الحقيقة وصف عالم واحد"(محمد إقبال، 1967: 230)، لأنه فيما بعد يوضح محمد إقبال المقصود من الحقيقة الدّينية، لتتدخل الذات، لتؤلف بين ميولها.

فما الذي يحدث؟

2- إعداد الذات في فلسفة محمد إقبال:

يقول: "فمنتهى غاية الذات ليس أن ترى شيئا، بل أن تصير شيئا، والجهد الذي تبذله الذات لكي تكون شيئا، هو الذي يكشف لها فرصتها الأخيرة لشحذ موضوعيتها، وتحصيل ذاتية أكثر عمقا، ترى الدليل على حقيقتها في قول الفيلسوف إمانويل كانط: أنا أقدر، لا في قول ديكارت: أنا أفكر، وليس غاية الذات التحرر من حدود الفردية، بل هي على العكس من هذا"(محمد إقبال، 1967: 232)، فنظرة محمد اقبال للدّين، تدعوا إلى العمل، والأخذ من الغرب التجربة الأخيرة الملائمة، لأن الدّين يقوي إرادة الذات المسلمة بالعمل المستمر، وقد وجدت شعرا يوضّح رأيه أكثر في هذا المقام(محمد إقبال، 1967: 232):

أأنت في مرحلة الحياة أم الموت، أم الموت في الحياة؟
أنشد العون من شهود ثلاثة، لتتحرى حقيقة مقامك.
أولها عرفانك لذاتك.
فانظر نفسك في نورك أنت.
والثاني، معرفة ذات أخرى.
فانظر نفسك في نور ذات سواك.
والثالث، المعرفة الإلهية.
فانظر نفسك في نور اللّه.
فإذا كنت ثابت الروع في حضرة نوره.
فاعتبر نفسك حيا باقيا مثله.
إنه الحق وحده من يجسر على رؤية اللّه وجها لوجه.

وهذا دلالة على العمل والجد، في صناعة الذات الواعية، في علاقتها بالمحيط الخارجي، والتأكيد على مسألة الحقيقة الجوهرية، إن تمت فذلك منبع الطريق الصحيح نحو الفاعلية في الميدان، والنقد العملي البناء، وبداية لتنتصر فيه الذات للحقيقة متخلية عن شوائب الذاتية، التي كثيرا ما تحجب الحقيقة، والمتطلع للفكر الإصلاحي عند محمد اقبال، ينتهي إلى أمر جلي، يقودنا للحقيقة الباقية في مقام الدّين، ومكانته في إصلاح الأوضاع الاجتماعية.

وضّح محمد إقبال في كتبه، سواء نثرا أو شعرا، حالة الذات الفردية، فالمسلم أصبح في وضع من الركود الفكري، والتخلف الاجتماعي، على جميع الأصعدة، في وقت لاحظ فيه محمد إقبال أن الفرد المسلم صاحب دين، ذو عقيدة متسامحة ومتعايشة مع مختلف العقائد الأخرى، مكنت المسلمين الأوائل من بناء حضارة تشدّ إليها الرحال من كل صوب، ولاحظ من جهة أخرى، أن هذا الفرد المسلم، وهو في حالة من الركود، قد تأثر ببريق الحضارة الغربية في منتجاتها المادية، وبقيم غريبة عن أسس مجتمعاتنا العربية الإسلامية، ولكن القاعدة تقول: المغلوب مولع بتقليد الغالب وانطلاقا من هذا القول، انسلخ المغلوب عن قيمه، وتخلى عن الكثير من مقومات هويته، وإن كانت الأمة العربية الإسلامية تتشدق بها ظاهرا، فهي تكاد تكون حلقة من دخان، وفي هذا يقول محمد إقبال، عن أهم أساس اجتماعي تخلى عنه المسلمين: "إن المسلم القوي الذي أنشأته الصحراء، وأحكمته رياحها الهوجاء، أضعفته رياح العجم، فصار فيها كالناي نحولا ونواحا!!، وإن الذي كان يذبح الليث كالشاة تهاب وطئ النملة رجلاه!!، والذي كان تكبيره يذيب الأحجار، انقلب وجلا من صغير الأطيار!!، والذي هزأ

عزمه بشم الجبال، غل يديه ورجليه بأوهام الاكتئاب، والذي كان ضربه في رقاب الأعداء، صار يضرب صدره في اللأواء!! والذي نقشت قدمه على الأرض ثورة، كسرت رجلاه عكوفا في الخلوة!!، والذي يمضي على الدهر حكمه، ويقف الملوك على بابه، رضي من السعي بالقنوع، ولذّ له الاستجداء والخشوع"(محمد البهي، 1964: 425).

هذا هو التردي الذي آل إليه الفرد المسلم، من خضوع، وخنوع حال بين التردد من الفرد المسلم، والتجديد والإبداع، جعلت من الفرد يقتنع بالمنظومة الفكرية التي تربى عليها، فهي منظومة الجمود المقصود، بمخطط استعماري، أو عن جهل الأفراد بمسؤولياتهم اتجاه الأمة، وقيمهم المناط بهم صونها، والحفاظ عليها عبر تواتر الأجيال، ومن جهة أخرى أن تكون الذات فاعلة في واقعها، بدل أن تصبح العبادة في الخلوة هروبا من المسؤولية، والتي هي على عاتق كل فرد من موقعه، في ذلك الواقع المؤلم، الذي نعيشه، إلى أن أصبح النور ألما، مثلما كان يردد المفكر عبد الرحمان الكواكبي، وهذا حال محمد إقبال في تشخيص الواقع وحال الأمة العربية الإسلامية.

فالبعد الإصلاحي للمفكر محمد إقبال هو السعي للبناء والتشييد، ولذا فهو يقول: "إن السمو مستوى جديد في فهم الإنسان لأصله، ولمستقبله، من أين جاء؟ وإلى أين المصير؟ هو وحده الذي يكفل له آخر الأمر، الفوز على مجتمع يحركه تنافس وحشي...هو سعيا مقصودا للوصول إلى الغاية النهائية للقيم، فيمكنه بذلك أن يعيد تفسير قوى شخصيته، هو حقيقة لا يمكن إنكارها"(محمد إقبال، 1967: 207)، فيمكن للفرد إعادة الصياغة بخطى متوافقة مع غاية الدّين، يوجه من خلاله سلوك الفرد نحو القيم الروحية، فهي محاولة تجديد وبعث قوى

الذات وفق منهج إسلامي، وحفاظا على الوحدة، وباعتبار مشروع الحياة فإنه للكون حركة تختلجها الروح، فكذلك للفرد حياة ذات روح، وفي نزاع الذات بين الجمود والخمول، فإنه نزاع بالنسبة للمفكر محمد إقبال بين الحياة والموت، ليس موت الجسد، ولكن موت نشاط الروح.

فكيف يكون التجديد لحال الفرد الخامل، أو إحياء الذات الميتة؟

وجواب ذلك، أن إحياء الذات الميتة يقابله إحياء للدّين، وهو المنطلق في إصلاح الذات العربية الإسلامية من الصميم، وفي هذه النقطة يقول محمد إقبال: "التجربة بيّنت أن الحقيقة التي يكشفها العقل المحض، لا قدرة لها على إشعال جذوة الإيمان القوي الصادق، تلك الجذوة التي يستطيع الدّين وحده أن يشعلها، وهذا هو السبب في أن التفكير المجرد لم يؤثر في الناس إلا قليلا، في حين أن الدّين استطاع أن ينهض بالأفراد، ويبدل الجماعات بقضها وقضيضها وينقلهم من حال إلى حال"(محمد اقبال، 1967: 207).

والمنظومة الفكرية التي يشتغل عليها محمد اقبال انتقادية، تمحيصا للحضارة الغربية، والتفريق بين منتجاتها، والسبب الحقيقي وراء رقيها، وحينما ينتقد المنظومة الفكرية الغربية في أحد جوانبها يحدد السبب المؤثر في الوجود الحقيقي للحضارة الغربية فيقول:" إن مثالية أوربا، لم تكن أبدا من العوامل الحية المؤثرة في وجودها، ولهذا أنتجت ذاتا ضالة، أخذت تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لا تعرف التسامح وكل همها استغلال الفقير لصالح الغني، وصدقوني أن أوربا اليوم هي اكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسان"(محمد إقبال،1967:207) فالبريق الحضاري لأوروبا لا يعني قوتها، فهي فاقدة

للقيم الأخلاقية، ذلك أن الاستغلال على أوجه، مثل الغني للفقير، وكأنها طبيعة وقانون إنساني لا يمكن مناقشته، ولذا ينبهنا محمد اقبال للجانب الروحي، الذي يعطي الصبغة الحقيقية للإنسان، في سبيل حياة عادلة، فعلى الفرد المسلم أن تكون أصول شخصيته مستمدة من القرآن الكريم، وسنة خاتم الأنبياء، بدل أن تكون أوربا المنزوعة القيم الروحية، وما يطغى عليها من جانب مادي، قائدة للحضارة الإنسانية.

لذا فإن الإنسانية عند محمد إقبال، تحتاج إلى وضع مبادئ أساسية، ذات أهمية عالمية، تكون عنوان هوية الذات العربية الإسلامية، ومنهجها في الرقي بالذات نحو التطور والتجديد المستمر، ويرافقها أهم ما في الإنسانية من تلك القيم الخالدة في سيرة نبينا، وبذلك الفرد يحتاج إلى رد الاعتبار لقيمه الحقيقية.

3- نفي الذات في فلسفة محمد اقبال:

بعد أن أثبتها يسعى إلى نفيها، وذلك بعد اعتبار الإنسان خليقة الله في الأرض، من روح الذات، ومن روح الكون، وهاته الفكرة أودعها محمد اقبال في الكثير من قصائده، وخاصة في قصيدته: "رموز خودي"، والمقصود بـــ خودي، الاعتماد على الذات، وتكون من خلال الوحدة الوجدانية، وقد نشرها عام 1918، ليوضح لنا العلاقة بين الذات والجماعة، وتكون العلاقة بعد أن تثبت الذات لنفسها الاحترام والثقة، وبتأكيد شخصية الإنسان وفرديته، والاحتفاظ بطاقة الذات لتبقى حية بالحب والأمل، ينتقل إلى الجماعة التي تعيش فيها تلك الذات المنفردة، وانفراد الذات لا يعني اعتزالها عن الآخرين، بل لتحقيق السمو فقط، لتكون دليلا لسمو الذوات الأخرى، وهذه الدّلالة عن العلاقة يذكرها محمد إقبال، في بداية نظمه لقصيدته رموز خودي:

رحة للفرد حـــجر الأمة كامـــل جوهره في الملة
فالْزمنَّ الجمع جهد المستطاع في ذرا الأحرار كن مثل الشعاع
واحفظن ما قاله خير البشر: كلُّ شيطان من الجمع نفر
فرد ما مرآته أمّـــــته وكذا مرآتها صـــــورته
وهم ســـلك نظام ودرر أو نجوم تتـــجلى في النهر
قيمة الأفراد جدوى الملـــة ومن الأفراد نظـــم الأمة
وإذا الواحد في الجمع نما كانت كالقطرة صارت خضرما

(محمد عبده، 2007: 190).

يبين في هاته القصيدة الحقيقة الأساسية، بأن الفرد لا تكتمل حياته الا في اطار الجماعة، وواصل محمد اقبال في منظومته تأكيد أهمية العلاقة بين الفرد والأمة، فالتبادل والترابط بينهما ضروري، فقيمة الفرد من قيمة الأمة، والفرد صورة من تلك الأمة، فالجماعة تساعد الفرد في مواصلة مشوار إثبات الذات، وإثباتها لا يكون إلا بنفي الذات داخل الجماعة، لتتحد الذات بالجماعة والأمة الإسلامية قاطبة، ولا يعني نفي الذات عبوديتها، بل تكملها تلك الجماعة، مثل الشجرة، تثبّت جذورها في الأرض، فتنمو أغصانها وأوراقها، وتزدان حلّتها بذلك البنيان المرصوص، ليكون الأفراد مترابطين ومتحدين، على كلمة رجل واحد.

ونفي الذات ليس أكثر من عمل تناغمي بين الفرد والجماعة، وهنا تكمن تربية الذات بين الاستقلالية نحو السمو من جهة، ومن جهة أخرى متفاعلة مع الآخرين، فالاستقلال الذاتي هو أن الفرد يفكر باستقلالية، ولكن على منوال الروح، وتبعيته لا يعني أنه يفكر كالببغاوات، بل من خلال محاكمة عقلية بين الذات والدّين، والتجربة

التي لا تنفصل عن كيان المجتمع، ولا تقيم قطيعة مع الحضارات الأخرى، لكن بشرط أن تكون الذات في تصورها على دليل من القرآن، وهدي المصطفى، وما يفيدنا من تجارب الحضارات الأخرى، وبما يخدم واقعنا، ويحرك الذات بفاعلية ايجابية نحو الإنتاج المبدع.

ولا يجب أن يكون الفرد متعالي متكبر، لأن الاستقلال الذاتي كثيرا ما ينجرّ عنه حالات نفسية كالعظمة، أو العكس النقص بسبب التبعية، فالمغلوب مولع بتقليد الغالب بتعبير العلامة ابن خلدون، ولذا فإن هدف محمد اقبال تطوير المجتمع، وشد اللحمة بين أفراده، "فهدف هذا النموذج، التعبير بوضوح عن الفروق المثيرة للخلاف في المجتمع، وتطوير حوارات لدعم الادعاءات المتنافسة، ومن ثم التوصل، عبر تفكير مترو، إلى فهم الصورة الأكبر، التي تتيح إصدار حكم أكثر موضوعية"(ماثيو ليبمان، 1998: 132)، وهذا ما يسمّيه علماء التربية اليوم بالنموذج القياسي، فيسمى الاستقلال الذاتي المتعلم، أي النموذج القياسي، ووحدة الفرد النموذج عند محمد إقبال لا تضرّ بالأمة، إن كانت الغاية انغماس الفرد في الجماعة.

وعن علاقة الفرد بالجماعة، وانخراط الفرد فيها تزيد قوة نضوج الفرد، لأن المجتمع يزيد من أزر الفرد، وتقوية عزمه وأمله وتجديده، وهذا ما يوضحه محمد إقبال في منظومته الشعرية:

تُنضج الفطـرة فيه الصُّحبة فتراه الفرد وهــو الأمة
تُحكم الوحدة فيه الــكثرة وهي، بالوحدة فيه، وحدة
أفرد اللفظ من البيت ترى جــوهر المعنى لديه انكسرا
تسقط الأوراق من غصن ينيـع فترى محرومة، وصل الربـيع
طفئت أنغـام أعواد غناء فاتها من زمزم الأمّة مـــاء

يحرم الفرد الوحد المقصدا فترى نظـم قواه بددا
تجمـع الأمة شمل المنّة فيه تحبوه وعظيـم الهمّة(محمد اقبال، 2007: 191).

وحينما نتتبع منظومة "خودي"، يتبين لنا أكثر، بأن نفي الذات، ما هو إلاّ إثباتا للذات، لأن الغاية واحدة بالنسبة للأمة والفرد، وإنما الهدف الواحد يقوي الأمة، فلا يعني فناء الذات في الأمة محوها وتقييدها، بل إنه منهج إصلاحي تربوي، لتربية الفكر تربية صحيحة، ويكون ذلك على نهج صوفي ايجابي، تعوّد عليه محمد اقبال في حياته الأسرية، ومن ثم سعى إلى النضال، من أجل ذلك الأسلوب في الحياة، وحينما نطّلع على أبيات أخرى من المنظومة الشعرية، يتبين لنا ذلك السعي الجاد في "رموز خودي"، لإثبات مشروعية رأيه في الإصلاح الاجتماعي:

أنت من أنت حقا، وأنا أنا وهو الفـرد لا يرضى ثُناَ
يخلق النفس، ويذرو ويقرّ ذو دلال في خضـوع مستتر
يأسر الشـــعلة هذا الشرر لهب من حـــرِّه مسـتعر
حرّة رهن قيودِ فطرته جزؤه بالكل حاطـــت قوته
لكفـــــــاح دائم تنزو قواه هو يسمى الذات، أو يسمى الحياة
يستثير الحـــرب في جلوته حين يبدي النفـس من خلوته
يقطع الجبرُ عليه الطرقا وله بالحـــب فـترع سمقا
تتشظّى الذات في أمتها لترى الروضـة من زهـرتها
نكتة خذها بكفٍّ مِخدم وانصرف عني إن لم تفـــهم
(محمد اقبال، 2007: 192).

هكذا تكون الذات عند محمد اقبال، إنها أعلى شيء في الوجود، كما هو مضمن في جل أبياته عن الذات الإنسانية، لأنه من

خلال الذات تكون اليقظة، وبها نفهم الحياة، لتحيا الذات بتربية صحيحة تسمو بها نحو روح الكون، ونور الدّين الإسلامي، روح جادة، فتكون للفرد روح تتطلع إلى المجد، وليست نفس داخل جسد لا حياة فيها.

وأما عن حدود الذات، فإن محمد إقبال روّج للطموح، فأودع طموحه في تربية الذات التي يريدها، ولكن التربية لا تأخذ بدون عناء ومثابرة، ولن تتاح إلا لصاحب الأمل والصمود، وكذا فهم نظام الحياة، وعلى هذا الأساس يشبه الذات بالغوص في البحر، فتتخاصم الذات، وأثناء ذلك الخصام تثبت الذات وجودها، وحياتها.

4- تربية الذات نحو سموها:

يجب تربية الذات على الحب والعشق، ولهذا انصب تفكير محمد اقبال على مشروع تربية الفكر:" مادام أمر التغيير أو التجديد أمرا ضروريا ولا بد منه، فيكون هذا التغيير، ويكون هذا التجديد، في فهم الإنسان لوجوده الإنساني، ولذاته وللعالم، وللذات المطلقة وللإسلام، وللعلاقة بين هاته الأمور ككل"(جيلالي بوبكر، 2010: 32).

لأجل أن تعرف الذات الحقيقة، إلا أن الوجود أقوى من العقل، وفي حوار بين العقل والقلب، يتبين لنا تربية الفكر الصحيحة، التي يسعى وراءها محمد إقبال، لتكون مشروعا للأفراد والأمة، وما الأفراد إلا أمة في صورة فرد، وفي حوار بين العقل والقلب، يقول القلب: "قطعا الله موجود، فيرد العقل: ولكن يا صغيري الوجود من مقولاتي وليس لك الحق في استعماله، فيجيب القلب: هذا أفضل يا عزيزي أرسطو، فالصفات مشتركة بين الذات الإنسانية، والذات الإلهية"(حسن حنفي، 2009: 49).

فالقلب هو الذي ينير العقل، وبمقولة محمد إقبال: أين الفؤاد؟ فالغني هو غني الفؤاد، والظن زيف، لأنه من العقل، فمهمة الذات الاحتراق، بدل جمع الحصاد، فهناك فرق بين الوسيلة والغاية، فما العقل إلا وسيلة، ولأجل ذلك قمنا بتحليل العناصر التالية، والتي تبين مكانة الذات المكافحة:

أ. العلم الحي مربي الذات الحقيقي نحو سموها:

إن العلم الذي هو غذاء الروح، تحصل عليه الذات بالمشاهدة، والتي منبعها العشق الإلهي، أما الخبر فإن تصديقه بالعيان فليس من سمع كمن يشاهد، وهنا تأثر بارز من محمد اقبال بالمنهج التجريبي، الذي ساد الحضارة الغربية، فصوفيته لم تمنعه من الأخذ بالأسباب، والبحث الجريء، انطلاقا من الواقع، فليس من فلسفته الانعزال، فالأشياء كما يرى محمد اقبال تخضع للهوية، إلا أن الغذاء الحقيقي للروح هو العشق، فهو الذي يجدد التفكير، لأن ما كتبه السابقون ممن يحسبون على هويتنا من الأفذاذ، كتبهم قد تضيع، وينقطع عنا علمهم ومجهودهم الفكري، ولكن حينما تنمو بين جنباتنا حلاوة نور العشق نرى الحقيقة، من خلال النور الذي يجذبها في معاناة الحياة، وفي مخاطرة متجددة من تعقيدات الحياة، ويعقب محمد إقبال عن هذا الموقف في رسالة: "ضرب الكليم":

لم تخف هذي الكائنات ضميرها شوق الظهور يثور في ذراتها
إن صاحب النظرات شوق بصيرة تتبدل الأيام في جلواتها
من ذي البصيرة لي جنون ثائر عرفت به الذرات طيَّ فلاتها
من ذي البصيرة في الليالي قد غدا آناء من خضعوا لها ساداتها

هذي البصيرة لا تيسر لامرئ تخزي القلوب بنفسه وسماتها (حسن حنفي، 2009: 55).

فالعشق له كشف عظيم لا يتجلى للعقل، لأن: "الذوق مصدر للعلم اليقيني وطيس الكبت، والقلب مهبط الوحي الأبدي، وليس سفن كتب التصوف، واللاهوت والأدب التي تغرق في البحار، الرؤية والمشاهدة تتطلب العين الثاقبة"(حسن حنفي، 2009: 56).

فحينما تدرك النفس ذاتها عن طريق العرفان، وبهذا المنهج نصبح على موعد مع الإنسان الكامل، لأنه ليس خاملا مقلدا، فهو صاحب أصالة ومعاصرة، يأخذ من الدّين غذاءه الروحي، ومن عناده حل المشكلات، ومن انفتاحه لب الحضارات، وعلى هذا بين محمد إقبال المعاني الحقيقية للرجل الكامل، من جهة الأخذ بما هو ايجابي عند الغرب، وترك مظاهر التقليد التي ليست من وسائل بناء الحضارة، وبذلك كانت دراسته للمجتمع الغربي دراسة نقدية بناءة.

خاتمة:

ولذا فإن الذات الإلهية هي منبع الوحدة، وهي التي تشكل الأمة، وتحفظ لها كيانها وهويتها، فبعد الوحدة كيف يتم البناء؟، وإجابة محمد اقبال تأتّى من خلال "الاجتهاد".

والاجتهاد هو بذل الوسع في ما تنتجه الحياة من إشكالات لم تكن على عهد سابقينا، فالقرآن وحي كامل، وبذلك التفكير والاجتهاد في الشريعة لابد منه لبقاء الحضارة الإسلامية، بدل التقليد الأعمى للسلف، لأن في الكثير من الأحوال قد لا تتجاوب معطيات اليوم مع أحوال الأمس، ومع مستجدات العصر "ولهذا لابد لنا قبل مواصلة

البحث من إن نتحرى أسباب هذا الاتجاه العقلي، والذي رد شريعة الإسلام إلى حالة تكاد تصل إلى الجمود".

فإعمال العقل بعد القرآن والسنة ضرورة ملحة، وكذا التفكّر في مصدري الدّين الإسلامي لابد وأن نعيد صياغة بنية عقلية جديدة قابلة للتغير نحسن بها التفكّر، وذلك حسب المقتضيات التي نعاصرها، ولا يعني ذلك خطأ السابقين، وإنما على العكس من ذلك، بمعنى أن البنية التي اجتهدوا بها في التفكر في القرآن ساهمت في الرقي، وبناء حضارة إسلامية عظيمة، ولكنها سنة التغير تصيب كل شيء في هاته الحياة من خلق الله، وجب معها إحداث قطيعة إبستمولوجية في بنية العقل، لنحسن التصرف مع إشكاليات العصر، وبذلك يستطيع العالم والفيلسوف إبداء الرأي الصحيح، والمساهمة في ارتقاء الحضارة العربية الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع:

1- إقبال محمد، (1967). **تجديد التفكير الديني في الا سلام**، ط2. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة

2- إقبال محمد، (2007). **الأعمال الكاملة**، بيروت، ابن كثير

3- البهي محمد، (1964). **الفكر الا سلامي الحديث و صلته بالا ستعمال الغربي**، ط4. القاهرة: مكتبة وهبة.

4- جيلالي بوبكر، (2010). **الاصلاح والتجديد لدى محمد إقبال ومالك بن نبي**، الجزائر: دار المعرفة

5- ح سن حنفي، (2009). **محمد إقبال فيلسوف الذاتية**، بيروت: دار المدار الاسلامي

6- ليبمان ماثيو، (1998). **المدرسة وتربية الفكر**، تر: ابراهيم يحي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة.